فى سبيل الأرض الطيبة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

لم يكد المصلون يفرغون من صلاة العشاء فى مسجد القرية حتى ابتدروا الباب يريدون الخروج . لم ينتظروا ختام الصلاة المفروضة مع الإمام ، ولا أداء الصلاة المسنونة بعد الختام ؛ وإنما خرجوا وعلى وجوههم اهتمام ، وفى حركاتهم نشاط . لقد كان موعد النشرة الإخبارية الثالثة التى تذاع فى منتصف الساعة التاسعة قد قرب . والفلاحون منذ سنت حكومة الثورة قانون تحديد الملكية ، حراص على أن يجتمعوا كل ليلة فى ساحة العمدة يستمعون إلى الراديو وهو يذيع أخبار هذا القانون ، من تفصيل مجمل ، أو تفسير غامض ، أو تعديل نص ، أو تنفيذ قرار . فإذا فرغ مذيع المحطة من خبره ، أو مندوب الحكومة من حديثه ، لم يجدوا فى أنفسهم ما كانوا يجدون قبل اليوم من الرغبة الشديدة فى الاستماع إلى قصائد أم كلثوم ، أو إلى أغانى عبد الوهاب ؛ وإنما وجدوا مكانها رغبة أخرى لا يملكون عن قضائها صبرا ، ولا يدركون فى غيرها لذة : تلك هى الرغبة فى التعقيب على أخبار القانون السعيد الذى سيملأ القرى غنى كما ملأها الإقطاع فقرا ، وفى التعليق على خطب الزعيم الجديد الذى سيملأ البلاد عدلا كما ملأها فاروق جورا . ولكنهم كانوا بحكم أميتهم يتفاوتون فى فهم ما يذيعه الراديو باللغة الفصحى ؛ فالقلة القليلة وهم المتعلمون وأنصافهم يفهمون كله ، والكثرة الكاثرة وهم الأميون وأشباههم يفهمون بعضه . لذلك كانوا إذا ما أسكتوا المذياع يمدون أعناقهم إلى المصطبة الطويلة التى يجلس عليها كبار القوم ، وينشرون آذانهم إلى ما يقول الشيخ محمود بلغة العامة ، ترجمة عما قال المذيع بلغة الخاصة . حتى إذا فرغ الشيخ من التلخيص ، وأعانه الشيوخ الآخرون على الشرح ، انثالت الأسئلة على المصطبة ، وانهالت الأجوبة على الساحة ، وأخذت الناس حال من الحماسة تكاد تخرجهم من جلودهم الغليظة ، وتغلبهم على عقولهم الرزينة . هذا يزهو

الشموخ الحادث فيملن الاحتقار لمالك الأرض . وذاك يملكه الحقد القديم فيسر الانتقام من ناظر الزراعة . وهؤلاء يرجون أن يقع ما يملكون فى الأحواض الخصبة . وأولئك يخشون أن يقل ما يأخذون عن الفدادين الخمسة . ثم ينصرفون جميعا إلى دورهم مثنى أو ثلاث أو رباع ، وهم يملكون ما تبادلوا من الأحاديث ، ويتمثلون ما تخيلوا من المنى ، ويرسلون أعينهم فى ضياء القمر الزاهر إلى الحقول الكاسية بسيقان الرز وأعواد الذرة ، فتملكهم هزة الطرب فيصيحون وهم يرقصون ويصفقون : أحقا ستصبح هذه الأراضى لنا ؟

— ٢ —

وفى تلك الليلة التى رأيناهم فيها ينصرفون سراعا من بيت الله إلى بيت العمدة ، كان الراديو يذيع أن اللجنة العليا لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى قد استولت على مافوق المائتى فدان من أراضى الملك الخليع المخلوع وآل بيته ومن استشار سيرتهم فى الترف والسرف والطغيان والجور . وكان من بين هؤلاء مالك الأرض التى خلق الله أجسادهم وأرواحهم منها ، وأعاد أجدادهم وآباءهم فيها ، وجعلها لهم ولأبنائهم مستودع الذكريات والتراث ، ومستقر الحياة والرزق ، ومسترد الهوى والأمل ، قبل أن يغتصبها أبناء (قولة) فيما اغتصبوا ببضعة قرون .

فلما انتقل المذيع إلى أحداث الحرب فى كوريا ، وأنباء الثورة فى كينيا ، أقفلوا الراديو وأقبلوا بأبصارهم وأسماعهم على أهل المصطبة . ولم تكد العيون تتلاقى حتى سرى منها إلى القلوب سيال من الشعور المتقد المتحد حرك الألسنة بالهتاف ، وشغل الأيدى بالتصفيق ، وأخرج الشباب من طورهم فأخذوا يتبادلون اللكمات والركلات على عادتهم حين يستخفهم الفرح . أما الكهول فظلوا فى مقاعدهم هادئين هانئين يتمتعون بما أشعرهم هذا النبأ العظيم من برد السرور وحلاوة الغبطة ؛ لأن انقضاء أكثر العمر فى عبودية المالك وذلة الفقر طبع نفوسهم على التسليم بالواقع والرضا بالمكروه ؛ فحالهم أشبه بحال السجناء حين يتلقون أمر الإفراج ، أو الأرقاء حين يسمعون صيغة العتق ، لا يزيطون ولا يميطون ؛ وإنما يقابلون الأمر بشاشة الطمأنينة وابتسامة الشاكر .

ذهب أكثر الشباب إلى الحقول القريبة ينفسون فيها بالمرح الصاخب عن الفرح المكظوم ، ويتلذذون بمرأى الأرض وهى ملك كما كانوا يتأملون بمرآها وهى سخرة . وبقى أقلهم أمام المصطبة مع الكهول ، يتذكرون ما كانوا عليه ، ويتفكرون فيما صاروا إليه . وكان الحاج إبراهيم خولى التفتيش القديم يتصدر المصطبة فى غياب العمدة ؛ لأنه أكبر

القوم سناً ، وأكثرهم بالزراعة علماً ، وأطولهم لموظفي الدائرة صحبة . وكان قد هدف إلى الثمانين ، ولكنه لا يزال سليم البدن صحيح العقل ذكي الفهم حلو الحديث مهيب الطلعة ؛ تحسب وجهه الأسمر ، بين كلبوشه الأدكن العالي ولحيته الشيباء المرسلة ، وجه درويش من دراويش الفرس بدت عليه سمات الصلاح وخايل السكينة . وكان منذ علاه الشيب وخفت عنه أعباء العمل قد قسم يومه بين المسجد والمجلس ، فلسانه لا يفتر عن الذكر أو الحديث ، ويده لا تفارق المسبحة أو المغزل . وكان أحب الأحاديث إلى نفسه ما اتصل بالقرية ومن عاش فيها من الأخيار والصالحين ، أو بالأرض ومن تعاقب عليها من الملاك والموظفين . فحافظته سجل واع لما وقع في البلدة من أحداث وما طرأ عليها من تغير في خلال قرن من الزمان ، إن لم يكن فيه شاهد عيان فقد كان راوي خبر . لذلك تراه إذا تشقق السمر وتشاجن الحديث يعقب على كل نادرة بنادرة ، ويعلق على كل حكاية بحكاية

— ٣ —

كان الحاج إبراهيم يخوض مع الخائضين في حديث التمليك والتوزيع حين سمع محمداً حفيد المهدي البهلول يظهر الغبطة ويحمد الله على أن سيكون له في ثرى قريته الحبيبة فدانان أو أكثر . فالتفت إليه الحاج يقول وعلى وجهه مسحة الأسى ، وفي صوته رنة الأسف : ليت جدك يا محمد كان حياً اليوم فيسمع بأذنيه الراديو وهو ينقل إلينا هذه البشرى ، ويرى بعينيه الحكومة وهي توزع علينا هذه الأرض ! إذن لمات ميتة السعيد الذي صبر فنال ، وسعى فأدرك ، واستغنى فشكر !

فقال له الشيخ محمود : ولماذا تخص المرحوم المهدي بهذا التمني وأهل البلد كانوا جميعاً في مثل حاله ؟

فقال الحاج للشيخ وقد وقف مغزله وتوزن في لحيته وأقبل عليه بوجهه : لأن المهدي يا أستاذ مات شهيداً في سبيل هذه الأرض الطيبة . فقال الذين لم يعاصروا المهدي ويريدون أن يعلموا أمره ، والذين عاصروه ويحبون أن يستعيدوا ذكره : قص علينا يا حاج ماذا كان من حديث البهلول واستشهاده في سبيل هذه الأرض ؟

فقال الخولي القديم وهو ينزع الصوف المندوف من يمناه ، ويضع المغزل كله في يسراه :

كانت هذه الأراضي لنا منذ أنشأنا الله منها ، وجعل حظنا من الرزق فيها ، حتى اغتصبها محمد علي فيما اغتصب ، ثم ردها إلينا سعيد صديق الفلاح فيما رد . فلما تولى الخديو إسماعيل وفسق في البلاد فسوقه الفاجر ،

وأسرف فى أموال الدولة إسرافه الفاحش ، وركبه الدين الفادح ، وأعجزه الاقتراض المسعف ، وأعوزه المورد الفياض ، كان يفرض الضرائب الباهظة على الأراضى خصيبها وجديبها ، ويكلف عماله فى الأقاليم أن يجبوها مرارا فى السنة الواحدة . وكانوا إذا لم تف غلات الأرض بمطالب الخديو المرهقة ساموا أصحابها سوء العذاب ، فجلدوا بالسوط ، وحبسوا فى الدوار ، وهجموا على الحظيرة والدار ، فلا يعصم ملاك الأرض من كل أولئك إلا الفرار منها أو النزول عنها . وأجدادنا رحمهم الله قد فضلوا أن يتنزلوا عن أراضيهم للحكومة على أن يخرجوا من ديارهم ، وهى كما تعلمون ملاعب الصبا ، ومسارح الشبيبة ، ومجالى الأحبة ومدافن الأهل . وكان يوم استيلاء الحكام عليها يوم فرح فى القرية دوت فيه الطبول ، وصدحت المزامير ، وجلجلت الزغاريد ، وأصبح الناس بعده آمنين لا تفزعهم جباة ولا تروعهم جنود . وجعل إسماعيل هذه القرية وست قرى أخرى بمركز طلخا قطيعة لشريف باشا ورثها عنه ابنه على شريف . فلما توفى الوارث اقتسمها أولاده بينهم فكانت قريتنا من نصيب ابنه عز الدين . وكانت الأرض فى عهد شريف وذريته تزرع (وسية) يدير الأرنا ود شئونها بالكرباج ، ويعمل الفلاحون فيها (تملية) بالأجر . وكانت أجرة العامل سبعة مليمات فى اليوم ، وفدانا من الأرض يستغله أهله فى السنة . ثم تنقلت ملكية القرية وأهلها من آل شريف إلى أجناس شتى من الملاك ، فيهم التركى واليونانى والمصرى ، حتى انتهى بعضها إلى وحيد يسرى ، وبعضها إلى البدراوى .

فأنتم ترون أننا فقدنا السلطان على أرضنا وأمرنا قرابة قرن من الزمان نسينا فيه طعم الملكية ولذة الحرية وعزة الاستقلال . فأصبحنا كلما رأينا المالكين يبيعوننا بيع البهيمة ويشتروننا اشتراء العبد ، ويستغلوننا استغلال الآلة ؛ وكلما سمعنا أن فلاحين فى المراكز الأخرى لهم أرض يملكونها ، وثروة يديرونها ، وغلة يخزنونها فى دورهم ، ويتصرفون فيها بأنفسهم ؛ أقول كلما رأينا ذلك وسمعنا هذا استشعرنا الذلة ، وأحسسنا الحرمان ، وأدركنا أننا بعداء عن الشعب ونحن منه ، وغرباء عن الوطن ونحن فيه . وكان المهدى عليه رحمة الله أشدنا ألما من هذه الحال ، وأكثرنا هما بهذا الأمر ؛ لأنه كان عبدا من عباد الأرض المخلصين ، يكاد لا يرفع يديه منها ، ولا يمل الجولان فيها ، ولا يسأم الحديث عنها . يعرف أحواضها قطعة قطعة ، ويميز قطاعها سهما سهما ، ولا يخفى عليه من قويها وضعيفها شئ فى غلط ولا ساحل .

وكنا إذا نفك المالك الأرض ليعيد توزيعها على المستأجرين تركنا له أمر القسمة، فيوازن الحوض بالحوض، ويقارن القطعة بالقطعة، ويعادل الفدان بالفدان، ويقضي في ذلك الشهر أو الشهرين، ينتقل من مصطبة إلى مصطبة، ويتقلب من جرن إلى جرن، لا يجف له ريق، ولا يخفت له صوت، حتى يستولي كل مستأجر على أرضه.

كانت أمنية المهدي على الله أن يملكه قطعة من ثرى النيل يقصر عليها جهده وخبرته، ويقوت منها ماشيته وأسرته، ويطفئ بها شوقه الملح إلى أن يكون إنسانا له كرامة، ومالكا له نقود، وزارعا له رأي.

ولم يقنع المهدي بوساوس الأطماع وأحاديث المنى، وإنما كان يتنمى الوسائل إلى تصديق أحلامه وتحقيق أمانيه. كان يسأل كل طارئ على البلدة عن ثمن الأراضي في جهته، وعن مقدار المعجل والمؤجل من هذا الثمن، فكانت الأجوبة كلها تتفق على أن ما عنده من المال لا يبلغه بعض ما في نفسه. وماذا كان عنده؟ إسورة من الذهب لامرأته ثمنها عشرة جنيهات، وعجلة من بنات جاموسته ثمنها عشرة أخرى. أما النقد فمن أين يأتيه وكيف يستقر عنده؟ لم يدخل بيته قطن فيبيعه، ولم يفضل من أجرته شيء فيدخره. إن القطن وأكثر محصول الحقل لمالك أرضه؛ وأجرته والقروش التي تمر على يده من أثمان البيض أو السمن لنفقة بيته، والدين الذي عليه لتاجر القماش من جلاليب العيد يوفيه من ثمن كيلات من القمح يقتطعها من قوت أولاده.

إذن لم يبق له من وسيلة لشراء الأرض إلا معجزة من الله تدركه، أو كنز من المال يصيبه.

وكان المهدي ينتظر هذه المعجزة في ليلة القدر من شهر رمضان، ومن بغلة العشر في شهر المحرم؛ ولكنه وا أسفاه بعد طول الانتظار ودوام الترقب لم تنفتح له (الطاقة) في السماء، ولم تفكر فيه (البغلة) في الأرض!

* * *

وفي عصر يوم من أيام الربيع، والربيع فصل الآمال والوعود، عاد البهلول من المنصورة يطفح وجهه بشرا ويفيض صدره بهجة. ولم يكد ينزل عن حماره حتى دعا إليه عشيرته وجيرته. فلما اجتمعوا لديه قال لهم بصوت البشير إذا حمل الخبر، وبلهجة الرائد إذا حمد النجعة: إني سمعت اليوم في المنصورة أفندية يقولون إن الحكومة قررت

أن تبيع الفلاحين (وادى الريان) [1] بثمن مقسط على آجال بعيدة ؛ ولهم عليها أن تدبر الماء ، وتبنى الدور ، وتعطى البذور ، وتقرض المال ، وتهب الماشية .

فصاح القوم أجمعون بلسان واحد :

وأين وادى الريان هذا يا بهلول ؟

فقال : سألتهم هذا السؤال فأجابوا إنه فى جهة الفيوم .

وهنا سكت الحاج إبراهيم ليقول لصاحب المصطبة فى شئ من الإنكار :

أين الشاى يا شيخ عبد العزيز ؟

فقال شيخ البلد وهو يسعى إلى داره ليهيئ الشراب المطلوب : إى والله يا حاج ! إنك لتستحق أكثر من الشاى على هذا الحديث

ومرت برهة تبادل فيها الجلوس السكان وعقبوا على بعض نواحى الحديث ، حتى جاء الخفير يحمل القبع الأسود فى قدر كبيرة ، فارتشف القوم أقداحه فى التذاذ وسهم ؛ ثم عادوا يرهفون المسامع لقاص الوقور ويقولون له : هيه ، هيه ، يا حاج !

(١) كان مصدر هذه الشائعة السكاذبة ما نشرته الصحف يومئذ عن التقرير الذى قدمته لجنة المهندسين الدوليين سنة ١٨٩٤ إلى الحكومة المصرية ، عن استصلام وادى الريان فى خزن ماء النيل زمن الفيضان بترعة تمتد من النهر إلى الوادى ، حتى إذا غاض النيل وأدرك فرعيه الجفاف أطلقوا فيه ذلك الماء المخزون فيساعده على أن يروى مليون فدان من الأرض البور

— ٤ —

وعاد الحاج يقول :

بات أهل القرية تلك الليلة ولا حديث لهم إلا خبر الهدى ووادى الريان . وكان كل رجل فى كل منزل يدير الرأى فى هذا الأمر فما بينه وبين أهله : كيف يتركون بيئة عرفوها ومعيشة ألفوها إلى بلد بعيد ليس لهم فيه قريب ولا عندهم به علم ؟ وكيف ينصرفون عن حياة مطمئنة مستقرة فرارا من عسر قد يهون ، إلى حياة مجهولة قلقة طمعا فى يسر قد لا يكون ؟

ومن الذى قدر الأرزاق وقسم الحظوظ ؟ أليس هو الله جل شأنه ؟ ورب هنا رب هناك . وإذا كان الرزاق الكريم قد شاء أن يبدلنا غنى من فاقة ، وملكا من إجارة ، فإنه قادر أن يهيئ الأسباب إلى ذلك من غير حاجة إلى احتيال ، أو ضرورة إلى هجرة .

ومن العجيب أن القوم كانوا فى هذه الاعتراضات لسانا واحدا كأنما لقنهم إياها ملقن واحد !

والواقع أن فى صدر كل مصرى شيطانا يلقى فى أمنيته كلما تمنى ألا يفترق عن أسرته ، وألا يبتعد عن قريته ، وألا يغترب عن وطنه . فالفلاح يرضى فى بلدته العيشة الضنك ولا يلتمس العيش الرغيد فى إقليم مجاور . والتاجر يقنع فى مدينته بالربح اليسير ولا يطمع فى مدينة

إلى الثراء الضخم . والموظف يحزنه أن ينقل إلى عمل بعيد عن قريته إذا كان فى الريف ، أو عن مسكنه إذا كان فى الحضر . والساكن يشق عليه أن ينتقل من بيت متهدم فى حى قذر طالت سكناه فيه ، إلى بيت جديد فى حى نظيف استجدت صلته به .

فإذا تسايرت أهواء القوم على رفض النزوح إلى صحراء الفيوم كان ذلك استجابة لهذا الشيطان الذى سدنا عن حواضر السودان وهى حبيبة ، وصرفنا عن بوادى النيل وهى قريبة !

كانت هذه الوساوس تنتقل من فم إلى فم ، ومن دار إلى دار ، حتى تصل إلى أذنى المهدى فى منزله بطرف القرية ، فكان يفندها مستعينا بما سمع من آيات الله ، وبما حفظ من أمثال الماضين ، وبما روى من أشعار الهلاليين . ولكن القوم لم يلقوا أسماعهم إليه وفضلوا أن يتريثوا حتى يذهب غيرهم إلى هناك ، فيروضوا الأمور ، ويذللوا الصعاب ، ويحتملوا مكاره البدء .

ولم يرد المهدى أن يُسمع غير سميع ولا أن يقنع غير مستعد ، فآثر السكوت وصمم فى نفسه على أن يكون هو (أبو زيد الهلالى) بطل (الريادة)

* * *

والحق أن المهدى كان لا يختلف عن بطل الهلاليين إلا فى السواد والفروسية . أما فى سمات الرجولة الأخرى فقد كان يشابهه أو يقاربه . كان أسمر اللون فى ملاحة وجه ؛ وكان شجاع القلب فى سماحة خلق ؛ وكان حسن المراس فى دماثة طبع ؛ وكان على الجملة أشبه بفرسان قصة عنترة الذين تسمعون بهم ، يجمع بين قسوة الجوارح ورقة المشاعر . فهو من جهة يشارك عند الضرورة فى السطو بالليل ، ويبالغ بوم الخصومة فى الحقد على العدو ، ويجيد الضرب بالنبوت والخبط بالفأس ؛ وهو من جهة أخرى يعشق الطرب ، ويهوى الغناء ، ويحسن التقرعلى الطبلة والزمر بالأرغول والصفير بالناى . ومن أجل ذلك كان موضع الإعجاب من الرجال فى المركز ، ومهوى أفئدة النساء فى القرية

ولعل الزهو الذى كان يملأه من احترام الفتيان له ، وافتتان الحسان به ، كان بعد طبيعته الطموح الحافز الثانى الذى كان يدفعه إلى العمل ليغنى ، ويغريه بالغنى ليملك ، ويطمعه فى الملك ليكون أعلى مكانة فى أعين الناس ، وأجل كرامة فى رأى نفسه .

ولقد سنحت له الفرصة فى الهجرة إلى وادى الريان ليبلوغ غايته ، ونيل مراده ، فكيف يدعها تفلت ؟ وهل يليق بأهل الفتوة أن يستكينوا لمخاوف تخلقها الأوهام ، ووساوس تبعثها الظنون ؟ إن أرض الله

واسعة فلم يرض بالضيق ؟ وإن رزق الله كثيرا فلم يقنع بالقلة ؟ وإن البؤس الذى يعيش هو وقومه فيه قد بلغ الحد الذى لا سوء بعده ، فكل تحول عنه لا بد أن يكون إلى أحسن.

وماذا يضيره إذا انتجع هذا المكان المجهول ، فإن أصابه الخير اطمأن به ، وإن أخطأه التوفيق انقلب إلى أهله ؟

— ٥ —

كنا فى أواخر شهر مايو والفلاحون قد أوشكوا أن يفرغوا من حصاد القمح ، فلم يبق فى حقوله الجرد إلا جماعات مبعثرة هنا وهناك قد أخرها قسوة الأرض أو ضيق ذات اليد . وكان المهدى قد حصد أول الناس ؛ ولكنه كان مدينا بزمال فى الحصد لبعض جيرانه ، وأراد أن يوفيهم هذا الدين قبل أن تحول الأحداث دون الوفاء به ، فخرج مع الحصادين فى الهزيع الأول من الليل ، فى يده منجله ، وعلى كتفه رداؤه . وكان قبل أن يخرج من داره قد لبس أحسن ثيابه ، وقبل بدأمه ، وعانق إخوته ، وودع زوجته وابنته . ثم أمر أخاه الأصغر أن ينتظره بالحمار والخرج فى مدخل سكة السوق بعد صلاة الفجر .

لقد كان مجلس العائلة قرر أن يرحل المهدى وحده إلى وادى الريان ، فيملك الأرض ، ويختار البيت ، ويتسلم الجاموسة ؛ ثم يرسل إليهم فيلحقون به

وبات المهدى ليلته الأخيرة فى القرية يحصد ، ويغنى ، ويغازل ، و(ليلاه) من ورائه تلم الحصيد وتكومه أكواما صغيرة ؛ ثم تلمس عمدا كعبه الخشن بيدها الناعمة من حين إلى حين ، تريد أن تنبهه إلى وجودها من خلفه . ولكن المهدى كان مصروف الفكر عمن حوله . كان يغنى لسامع بعيد ، ويتغزل بحبيب مجهول ، ويتفكر فى دنيا جديدة ، وينظر من آنة إلى أخرى فى نجوم الشرق يبحث بينها عن نجمة الصباح .

وأخيرا هتكت يد الفجر أستاره الورديه ، وبشق النور ، وهللت الديكة ، ولمع صوت (أبو عامر) على سطح المسجد الصغير يقول الله أكبر ! الله أكبر !

فترك المهدى منجله ورداءه إلى الليل وذهب ليتوضأ ويؤدى ركعتى الصبح .

وبعد قليل كان على حماره فى الطريق إلى طلخا ، تحته خرجه ، ووراءه أخوه . فلما بلغ المحطة كان قطار الساعة السادسة على وشك القدوم ، فاشترى تذكرة إلى القيوم ، ثم اتخذ مقعده بين الركاب . ولم يكد يستقر فيه حتى استغرق فى نوم عميق ما كان يوقظه منه إلا صوت مأمور القطار يطلب منه التذكرة من محطة إلى محطة . وفى طنطا نبهوه أن ينتقل إلى قطار القاهرة فانتقل . وكان قد أحس الجوع

فأدخل يده فى الخرج وأخرجها بقرصة من الفطير وقطعة من الجبن فأفطر . ثم تحلل به التعب والسهر فوضع رأسه على رأس المسند ونام

ولما وقف القطار فى محطة القاهرة نزل جميع المسافرين ولم يبق فى العربة غيره . فسأل أحد الحمالين : أهذه هى الفيوم ؟ فأجابه : هذه هى القاهرة . فإذا كنت تقصد الفيوم فاسأل عن رصيف الوجه القبلى وامكث هناك حتى يقف عليه قطار الصعيد فاركب فيه

حمل المهدى خرجه ونزل من العربة ، ومضى يسأل الناس عن رصيف الصعيد ، فبعضهم يمشى ولا يجيب ، وبعضهم يشير ولا يتكلم ، حتى وجد رجلا يحمل زكيبة وكريكا ، فسأله فقال له : تعال معى . فمشى معه المهدى وانما بين عينيه غرضه ، فلا يقطر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يذكر أنه الآن يتنفس هواء القاهرة التى يسمع أن فيها آل البيت وحديقة الحيوان وأهرام الفراعنة ، حتى دخل هو ورفيقه فى زحمة المسافرين الصاعدين ، فحط كل منهما حمله وقعد بجانبه حتى جاء القطار

— ٦ —

دخل المهدى مدينة الفيوم فى الليل وليس له بها معرفة ، ولا له فيها صديق ؛ فمشى يعتسف الأزقة والشوارع لا يعرف مكانا يأوى إليه ، ولا يقصد إنسانا يسأل عنه ، حتى دُفع إلى بحر يوسف ، وهو النهر الذى يخترق المدينة ، واتخذ سبيله فى الشارع الواقع على شاطئه الأيمن حتى بلغ ساحة فسيحة تظللها الأشجار ، ويكثر فيها التجار ، ويتطرح فى جنباتها العمال والباعة يسترفهون من الإعياء ، ويستروحون طراوة الماء ، ويناقل بعضهم بعضا أحاديث الناس وأخبار المدينة .

ألقى المسافر الغريب خرجه بجانب سور الترعة الآخذة من البحر فى شرقى الساحة ، واطلع قبل أن يقعد فرأى ساقية عظيمة تدور فترفع الماء من غير بقرة ولا مكينة . فعجب كل العجب ، وحاول أن يعرف سرها فلم يستطع ؛ فاستشعر بذلك ، وأيقن أن سواقى وادى الريان كلها من هذا الطراز ؛ وتمنى أن تكون النواعج والمحاريث كذلك ؛ فإن فى هذا الطراز اقتصادا فى جهد البهيمة يكثر الشحم ويدر اللبن . ثم وجد فى نفسه الحاجة إلى الطعام فأخرج من الخرج فطيرا وجبنا وأكل حتى شبع . ثم أشعل سيكارة وأخذ يفكر فى الغد المجهول ويقول لنفسه :

ليت شعرى إذا أسفرت هذه الريادة عن صدق ذلك الخبر ، أتلحق بى أسرتى وحدها ، أم تهاجر معها قريتى كلها ؟

وإذا بقى أهل القرية هناك ، وظللت أنا وأسرتى هنا ، فما لذة الأرض الملك إذا لم يرها الصديق فيفرح ، أو العدو فيحزن ؟

وهل يبلغ المرء من الهوان والضعة أن يفضل العيش فى بلدته وهو عبد ، على العيش فى غيرها وهو سيد ؟

صحيح أن قيراطا فى أرض بلدك ، خير من فدان فى بلد غيرك ؛ ولكن كيف السبيل إلى امتلاك هذا القيراط وأرضنا بين (باشا) يستحيل عليه أن يكف عن الشراء ، و (أمير) يستحيل عليه أن يفكر فى البيع ؟

على أننى متى أرجع إلى القرية زائرا ورآنى الناس أمشى فى الحذاء المفصل ، وأخب فى الصوف الفاخر ، وألتفع بالحرير الأصيل ، وأتعامل بأوراق النقد ذوات المائة ، لا يلبثوا أن يقطعوا عزمهم على الهجرة .

وأشرق الأمل فى صدر البهلول وتشوقت نفسه إلى تحقيقه ؛ وتحقيقه لا يبدأ قبل الصباح ، وبينه وبين الصباح هذا الليل الثقيل الطويل ، فرأى أن يقصره بالنوم ، فاستلقى على الأرض ، خرجه تحت رأسه ، ولفاعته حول عنقه ، وهراوته فى يده ، ثم نام ملء عينيه .

وفى مطلع الفجر استيقظ على عادته ، فوجد الشوارع ساكتة والمنازل ساكنة والحوانيت مغلقة ؛ فقام إلى الترعة فتوضأ ثم عاد فصلى وأفطر . وانتظر حتى هبت الفيوم من الرقاد ، ودبت فى مسالك الحياة ، ثم دنا من رجل وقور توسم فى وجهه الخير وسأله :

كيف الوصول إلى وادى الريان ياسيدى ؟

فأجاب الرجل مبهوتا وهو يفكر :

وما وادى الريان هذا ؟ ليس فى إقليم الفيوم كله مدينة ولا قرية بهذا الاسم . لعلك تقصد بركة قارون ؟

فقال له المهدى مستفهما : وما بركة قارون هذه ؟ لم يرد فى الخبر الذى سمعته فى المنصورة مكان بهذا الاسم . أريد وادى الريان الذى توزع الحكومة أرضه على الفلاحين ، وقد قالوا إنه فى مديرية الفيوم .

فقال له الرجل آسفا : سل غيرى يا أخى فربما كان يعلم .

ولم يستريب البهلول فى شىء إلا فى علم الرجل . فتركه ومضى منحدرا مع بحر يوسف يسأل الهابط والصاعد عن وادى الريان فلم يجد علمه عند أحد ، حتى بلغ قرية (الفدين) فجلس ليستريح ويتغدى .

وكان يختار لسؤاله المتكرر ذوى العمائم واللبد والطواقى من أهل طبقته لأنه عليهم أجرأ وبهم آنس . فلما لم يجد عندهم الجواب المقنع بدا له أن يستفهم أحد الأفندية . وقادته المصادفة إلى موظف مثقف سأله فأجابه :

وماشأنك بوادى الريان ؟ فقال : علمت أن به أرضا للحكومة تريد أن تبيعها الفلاحين بثمن قليل . فقال له الرجل وملامح وجهه تترجم عن عجبه :

إن وادى الريان يقع فى الجنوب الغربى من الفيوم ، وهو واد منخفض مجدب لا ينبت به زرع ، ولا يعيش فيه حى ، ولا يسافر إليه أحد . وكل ماأعلمه من أمره أن وزارة الأشغال تريد أن تجعله خزانا للنيل ، تملأه منه وهو يفيض ، ثم تفرغه فيه وهو يغيض ، فيظل من النهر طاميا طول السنة . فبهت المهدى وشخص ببصره وأقام لا يطرف . ثم انصرف عن الأفندى دون أن يعقب على جوابه ورجلاه لا تكادان تحملانه من هول الصدمة ؛ ومشى متساقطا من الهم حتى بلغ جدارا فجلس فى ظله وأخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يسمعه السائر يقول :

يا خيبة المسعى ويا ضيعة الأمل ! ماذا أقول لقومى وقد وعدتهم الوعود ، ومنيتهم المنى ، وجعلت لهم البر عسلا والبحر طحينة ؟

أأعود ثانية إلى المالك يبيع فى ويشترى ، وإلى الناظر يفتات على ويفترى ! أينقطع الرجاء الأخير فى أن أملك قطعة من الأرض الطيبة التى استأثرت بحبى ، وزلت فى أوسع مكان من قلبى ؟

ولكن لماذا أيأس من الأمر لدى أول سؤال ؟

لم لا يكون هذا الأفندى من الذين يلذهم أن يجيبوا عن كل سؤال بأى كلام ، فيفتوا من غير علم ، ويشيروا من غير خبرة ؟

وبعث فيه هذا الشك روحا من النشاط فحمل خرجه وسار يتنقل من قرية إلى قرية ، ويسأل رجلا بعد رجل ، وكلهم كانوا يجيبونه إجابة الشيخ الذى سأله فى الفيوم ، أو إجابة الأفندى الذى سأله فى القديمين . فلم يبق لديه شك فى أن خبر المنصورة كان أفيكة أفاك وفرية مفتر .

وتعاقبت على خاطره الحقائق والأحلام ، فتارة كان يرى العودة إلى قريته ليستأنف حياة الشقاء ، وتارة كان يرى التجوال فى هذه البلاد الكثيرة الأطيان القليلة السكان ، طلبا للغنى وطمعا فى الملك ؛ حتى إذا اغتنى أو امتلك رجع إليهم بالمال أو أقدمهم عليه للملك .

وكان الخرج قد خلا من الزاد ، والكيس قد صفر من النقود ، فاضطر المهدى بن أن يؤجر نفسه يوما بعد يوم لأعمال الفلاحة ليعيش

واتفق ذات يوم أن كان عمله عند رجل من الفلاحين واسع الخبرة بالزراعة ،

طويل التجربة للزراع ، فأعجبه من المهدى متانة عضله ، وقوة جلده ، وضربة فأسه ، وقبضة محراثه ، فعرض عليه أن يشتغل عنده مشاهرة بثلاثة جنيهات غير المطعم والملبس والمسكن . فقبل المهدول العرض إلى أن يتبين له الأمر ، ويتكشف أمامه المستقبل

— ٧ —

دخل المهدى دار حمدان كما دخل موسى دار شعيب . كان حمدان رجلا كبير السن ، رقيق البدن ، حسن الحال ، يملك اثنى عشر فدانا من أجود الأرض يعتمد فى زرعها على الناس ؛ لأنه كان أبا لثلاث بنات ، تزوجت كبراهن ووسطاهن وبقيت الصغرى تطرد الوحشة عن البيت ، وتشيع البهجة فى النبط . ولم يكن حمدان يعمل بيده ، وإنما كان يكترى العمال ويقف وراءهم ، يرشدهم إلى مايريد ، ويكرههم على ما يحب . أما فكيهة فقد كان عملها أن تذهب إلى أبيها بالغداء أو الماء أو الشاى ، وأن ترجع إلى أمها بالخضر أو الفاكهة أو العلف . وكانت فى ذهابها أو إيابها محط الأنظار ومطمح القلوب . وفتاة كفكيهة تحوم عليها نفوس الشباب لثروة أبيها ، فكيف إذا كانت مع ذلك وسيمة الوجه ، خفيفة الظل ، رقاقة البشرة ؟ كان الخطاب يتهافتون عليها تهافت الذباب على العسل ؛ ولكن أباها كان يرفض أو يسوف ، لأن نيته كانت أن يزوجها من فتى كريم مستقيم ينزله منه منزلة الابن ، فيسا كنه فى البيت ، ويعاونه فى النبط ، ويعاضده فى القرية . ولكن عنوان أحد الخطاب كان طامحا ملحاحا لم ينسه من خطبته تسويف حمدان ولا إعراض فكيهة . كان يبتغى الوسيلة إلى حب البنية بالهدايا فى كل مناسبة ، ويلتمس السبل إلى رضا الأب بالمساعدة فى كل عمل ؛ ولكن فكيهة لم تجد فى عنوان الزوج الذى تحبه ، وحمدان لم ير فيه الصهر الذى يرضاه .

ومضت الأيام على هذه الحال حتى دخل المهدى عضوا جديدا فى هذه العائلة الصغيرة . وكان من طبيعة المهدى كما علمتم أو سمعتم الجد فى العمل والصدق فى النية والإخلاص فى العشرة . فدبر أمور الزراعة تدبير ابن الأرض الذى يجد لذته فى خدمتها ، وسعادته بين تربتها . فوقع ذلك من نفس حمدان موقع المسرة والغبطة ؛ واستبشر أن يكون المهدى هو الابن الذى ينتظره والصهر الذى يرجوه . وسرى إعجاب المالك بأجيره ، إلى زوجته وابنته ، فبالغت الزوجة فى العناية به ، ورغبت البنت فى التودد إليه . ورخص الوالدان لفكيهة أن تقوم على شؤونه الخاصة ، فتغسل ثيابه ، وتنظف فراشه ، وتهيئ طعامه ، وترفه عنه بالحديث إذا ما راح متعبا من أعمال اليوم .

وكان الهدى لا يزال مشغول البال بأمسه الخائب ويومه القلق وغده المبهم ، فلم يفطن إلى ما ينعم به فى هذه العائلة الرفيقة من رعاية الأب وعناية الأم ووداعة البنت . ولكنه لم يكد يقطع عزمه على انتجاع هذا الإقليم سعيا وراء الغنى حتى تنبه فجأة إلى أن بجانبه أجمل فتاة تنشد الزوج ، وأن تحت يديه أخصب أرض تطلب الفلاح ، وأن أمام عينيه أكرم زوجين يخطوان إلى الموت خطى سريعة

فقال فى نفسه وهو يرد فنجان الشاى فارغا إلى فكيهة: أليست هذه هى الفرصة التى طالما ارتقبتها بعين لا تغفل ، وانتظرتها بصبر لا ينفد ؟ زوجة جميلة تكون أختا لزوجتى ، ودار وسيعة تكون مأوى لأمى وإخوتى ، وأرض خصيبة تكون عما قريب نواة للملكى وثروتى !

ولم لا يكون الحظ السعيد هو الذى ألقى إلىّ خبر وادى الريان فى المنصورة لأنتقل من بؤس محض إلى نعيم خالص ؟

وتفتح قلب الهدى للحب ، واشتد شعوره بالجمال ، فرأى فى فكيهة متعة نفسه وقرة عينه وبهجة فؤاده ؛ ووجد فى الغيوم مالم يجده فى إقليم آخر من بهج الطبيعة فى مروجه الفيح ، وأوديته الخضر ، وحدائقه الغنّاء ، فتحركت فيه غريزة الفنان فتغنى بالمواويل الحر ، واستعان على ترجمة عواطفه الشبوبة بأنغام الناى . وتمكنت الألفة بينه وبين شباب القرية فكانوا يخالصونه الود ، ويقاسمونه الأنس ، ويتمنون لو يتزوج من فكيهة تستقر به النوى عندهم ، ويطيب له العيش فيهم .

وتوثقت بينه وبين فكيهة عرى الحب ، فكان لا يسمى إلا معها ، ولا يتحدث إلا عنها ، ولا يفكر إلا فيها ، حتى أجمع الناس على أنه الخاطب المختار والحبيب المفضل .

وبارك الشيخ حمدان وزوجه وأهله هذه الخطبة ، وافتخرت فكيهة على أترابها بهذا الخاطب ، واغتبطت القرية جميعها بهذا المواطن ؛ فلم يبق فى القوم من ينظر إلى هذا القران نظرة الحقد إلا علوان .

كان علوان الشنى يطمع فى أن تصبح فكيهة زوجه ، ويتوقع أن تصير فداديتها ملكه ، ويؤمن إيمان المغرور بأنه كان أقرب الخطاب إلى الظفر بفكيهة قبل أن يجئ هذا المنافس الغريب فيقلب أمله يأسا ونعيمه بؤسا وفوزه خيبة . كان يرى أنه الفتى الأول فى القرية ، لأنه كان مرهوب العداوة لشدة بطشه ، مرغوب الصداقة لكثرة ماله . ولكن هذا البهلول المرهوب المرغوب جاء فغض من قدره ، وحطأطأ من تعاليه ؛ ثم أصبح بعد خطبته لفكيهة المعمة

التى تصده عن غايته ، والهوة التى تحجزه عن سعادته . لذلك صمم على أن يزيل من طريقه كل حائل يحول من دون مرامه . وطوى صدره على أمر

— ٨ —

قال الحاج إبراهيم وقد تغرغرت عينه وتهدج صوته :

وانقطعت عنا أخبار المهدى ستة أشهر فلم نعرف له مكانا ولم نتلق منه رسالة .

وفى عصر يوم من أيام الخريف ، والخريف فصل الهمود والزوابع ، عاد خفير الأحوال من المركز ومعه إشارة من المأمور إلى العمدة يقول فيها : « أخطرنا بوليس الفيوم أن رجلا يدعى المهدى البهلول من بلدكم قد أطلق عليه الرصاص ، وقد نقل إلى المستشفى الأميرى بين الحياة والموت »

وما هى إلا دقائق معدودات حتى شاع النبأ فى القرية فاستولى عليها حال من الجزع لا يتصورها إلا من رآها . ولم نضع الوقت فى عتاب القدر ، فسافرنا إلى الفيوم ، ودخلنا على البائس الصريع فوجدناه لا يتقار على الفراش من مض الألم ومن حوله جماعة من الرجال والنساء يبكون

فدنا منه العمدة ونحن وقوف نغالب الدمع ونسكتم العويل ، وكشف عن وجهه الغطاء . فلما رآه المهدى ورآنا ، هم بالنهوض فردته المرضة . وانصرف الآخرون وجلسنا فى مقاعد ثم على جانبى سريره . وكان حضورنا قد قوى من روحه وزاد فى تجلده ، فحياءواده ، وسأل أخاه عن أمه وابنته . ثم سأله العمدة عما جرى له من يوم فارقنا إلى يوم لقيناه . فقص علينا ما سمعتموه الليلة على فترات كان يقطع بينها شدة الوجع أو غيبوبة الحمى

وفى المساء عاود الجريح نزف الرئة فانقطع أمل الجراح من نجاته . وشاء الله أن تنجح عملية الموت وأن تخفق عملية الحياة ، فعدنا بجثة الشهيد إلى الأرض التى خلق منها وعاش فيها ، فاستقبلته القرية كلها بالنحيب والعويل ، وحزنت عليه حزنا لم تجد العزاء عنه حقبة طويلة

ثم أمسك الحاج عن الكلام بعد أن عبر بشفتيه وكفيه عن معنى سبقه إليه القائل :

وا رحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

احمد حسن الزيات